الخيال والرؤيا الشعرية

بقلم ايليا الحاوي

اشرنا في مقالات سابقة ، الى ان التجربة الشعرية تصدر ، غالبا ، عن الانفعال الذي يغشى الواقع ويتحد معه ويحل فيه . ولئن كان الانفعال واحدا بين الفنون الادبية ، فانه يختلف من الواحد الى الاخر ، في عنفه وصفائه ومدى سيطرته على الموضوع . فبينما يكون في الرواية وئيدا ينمو نموا قاتما متمهلا ، ويتسرب الى روحها تسربا خفيا ، فانه يدرك في المسرحية غاية العنف ، اذ يتفجر ويدمر ذاته تدميرا . فالمسرحية تضغط الانفعال لتدرك ذروته ، بعد ان تسقط معظم الحوادث الجزئية والتفاصيل العرضية . اما الرواية ، فانها اكثر تيسرا للتفاصيل والجزئيات ، كما ان الانفعال يفقد كثيرا من عنفه خلالها ، لان نموها الزمني الطويل الامد يضعف من حدته ويهدىء من روعه ويطفىء قليلا او كثيرا من حماسه . اما الانفعال الشعري ، فيختلف عن الانفعال المسرحي والروائي في صفائه وتطهره تطهرا شبه تام من مظاهر الوعي وسور التقرير والمقابلة وسائر سمات الوضوح الفكري الغث ، بالغا من التوغل في ذاته والحلول فيما وراءادراكها وشعورها ، الى حد الرؤيا والاشراق . ولئن كانت سائر الفنون تنتخب من الواقع وتكيفه تكييفا ، فان الشعر يتخطاه ويسقط اجزاءه وتفاصيله ويمتنع عن تعليله والسرد فيه ، لان شدة تأثيره لا تعتمد على البرهان والبينات او نقل الواقع ونسخه ، بل تقوم على شدة استغراق الانفعال في ذاته ، وانهماره انهمارا حدسيا يطفىء احداق الوعي ويقلص اسباب الواقع ليجلو الحقائق المستورة بعد ان يجردها من المادة الكثيفة التي يتطين بها واقعها . والانفعال الشعري هو شخوص في روح الاشياء ، وادراك للحقائق الحية في عدنها الروحي الاول ، وقبل ان تفقد ذاتها وتدخل في سجن المادة والواقع ، وقبل ان تجري عليها احكام الادراك والفهم والتقرير . ولئن كانت سائر الفنون تترجح بين الادراك واللاادراك ، بين الشعور واللاشعور ، او بالاحرى لئن كان الادراك واللاشعور يخطفان فيها بلحظات عابرة ، فانهما يسيطران على الشعر سيطرة شبه تامة ، ويكاد الشعر لا يدرك ذاته حتى يتصفى انفعاله ويغدو كالروح . انه نزوع الى صوفية الاشياء .

الا ان الفن يطلعنا على ان ما يصح في النظر ، قلما يصح في الواقع . وذلك لان الانفعال الشعري الذي هو ، في اصله ، ذاهل مترنح يخطف فيما وراء حدقة المنطق ودائرة الوعي ، يكاد لا يهم بالافصاح عن نفسه حتى يخرج قليلا او كثيرا من ذهوله ويكتسي ملامح كثيرة من ملامح الوعي والتقرير الفكري والعاطفي . فالانفعال الشعري هو كثير الغموض عندما يكون شعورا او نزوة في النفس ، اما عندما يلتوي الشاعر عليه لينقله من نفسه الى نفوس القراء فان كثيرا من ظلال التجربة تزول وتتعفى ، وفي احيان كثيرة ، يتبين لنا ان الانفعال ، جميعا ، ينهار الى رمة واشلاء من الصور والمعاني الموات . وآية ذلك كله ، ان الانفعال شعور بالاشياء ومعاناة لها ، فهو دون شكل ودون اطار ، يختلج لكنه لا يرى ولا يفهم . وعندما يسعى الشاعر للتعبير عنه ، فانه ينتقل من مرحلة المعاناة الى مرحلة التفكير ، والفكر يختلف اختلافا تاما عن الشعور . الاول لا روح له ولا حرارة فيه ، لانه نوع من المطلق الذي افتقد صلته بالحياة ، اما الثاني فشيء روحي حي ينبض ، لكنه يكاد لا يلمس ويقبض عليه ، حتى تتبدد ظلاله ، ويتعفى كالسراب . فالمشكلة ، اذن ، هي بين مبدأ الشعر وواقعه . الانفعال الشعري هو في ذروته روحي معنوي ، وفي نهايته مادي فكري واقعي . فوجوده الحقيقي يخالف وجوده الواقعي . لهذا نرانا لا نبرح نقول ، ان الشاعر لا يدرك الرؤيا الشعرية الصافية حتى يتطهر تطهرا تاما من ادران المادة والوجود الحسي وما يتفرع منه ويلتصق به من اساليب المقابلة والتشبيه . فالمظاهر المادية ، هي ، في معظمها ، مظاهر زائفة عمياء . انها قشرة الوجود الحقيقي والبرقع الذي يتستر به . والشعراء الذين لا ينفذون الى ما وراءها يسفحون تجاربهم بنوع من التعتعة الخارجية التي لا تفصح عن شيء . فمنهم من يصل الى الرؤيا الشعرية الصحيحة ، الى احشاء الوجود الحقيقي ، ومنهم من تتجلى لهم الرؤيا نصف تجل ، اذ تقتحم ظلال التجربة خطوط الافكار والمعاني ذات الاطار بما فيها من رواسب المنطق والمعرفة . وشعر هؤلاء ليس تقريرا وليس رؤيا ، وانما مجموعة من المعاني الصريحة ، الجلية الاحداق التي تخوض في الظلال والاطياف ، دون ان تدعها تغشاها وتمحو معالمها . والانفعال في مثل ذلك النوع من الشعر يسقط بعضه ويطأه الوعي ، فيظلم ويتقلص ويبقى بعضه الآخر معانقا شيئا من الذهول ، الذي تتضوأ به الرؤى وتنهمر المشاعر . ولعل الفرق الجوهري بين الشعر الصافي والشعر المترجح ، المائل الى النثرية ، يظهر في ان الاول يوحد بواعث التجربة مع نتائجها ، وقبل ان تتجزأ ، وتحاول ان تعقل ذاتها ، بينما نرى ان معالم الوجود الحسي والمنطقي تطغى على التجربة في النوع الثاني من الشعر ، فتتقلص البواعث وتطفو النتائج على لجة النفس . وفي مثل هذه الاحوال يتفسخ الانفعال ويضعف ويوشك ان يحتضر ، لكنه لا يموت وتخمد جذوته ، تماما ، فهو ينبض بتؤدة قبيل الاحتضار بعد ان افتقد توتره وتلمعه على غيب الاشياء . وهذا النوع من الشعر هو ايسر من النوع الاول ، بالرغم من انه يبدو في ظاهره شديد التوتر . نرى ذلك في مثل قول فوزي المعلوف :

بين رواحي وجسمي ذاك الاسير كان بعد ذقت مره
انا في الترب وهي فوق الاثير انا عبد وهي حره

فهذا البيتان يمثلان المرحلة الثانية التي دخل فيها الذهول الشعري بعد ان خرج من غيبوبته ولامس الحقيقة

وجعل يتكيف وفقا لمقتضياتها . وهي تمثل النتيجة التي طفت على وعي الشاعر بعد صحوة الانفعال، او في اللحظات التي كان يترجح فيها بين غيب الانفعال الواعي الذي يعبر عن نفسه بعد ان كان يعانيها . وبكلمة موجزة ، انه الانفعال الذي فقد سيطرته على ذاته وجعل يقع تحت سلطة العقل. لهذا لا نرانا مغالين ، اذا قلنا انه ليس الانفعال بالذات بل حديث عنه وترجمة له . فالشاعر كان يعاني حالة غامضة من واقعه في الوجود بدلا من ان يسعى لنقلها بكليتها نقلا ذاهلا عبر جوقة من الالفاظ والانغام والرؤى، جعل يصنفها في حدود المعاني والافكار التي لا تخلو من التقرير . لا شك انه ابقى فيها شيئا من النغم الداخلي الذي يغمرها بحالة من الترنح ، لكنه ، عبر ذلك كله ، رسم الادراك خطوطه الواضحة بأفكار لا لبس فيها ولا ظلال . فهناك الجسد والروح يقابلهما العبد والحرة والتراب والاسير . وهكذا ، فنحن أمام أبيات تفهم بقدر ما تعاني ، بينما كنا قبلا امام أبيات تعاني اكثر مما تفهم .

ومهما يكن فلا نرانا نعدو الحقيقة ، اذا خلصنا الى القول ، ان ما يسعى الشعراء المعاصرون لتحقيقه ، فيما يسمونه بالتجربة الكلية ، اي التعبير عن الاشياء في اطار الرؤيا ، ان ذلك يصعب بل يستحيل ، لان وسائل التعبير هي في معظمها وسائل مادية ، واقعية ايضاحية ، ومعظم الشعر الذي يقع بين ايدينا ، هو الشعر الوعي الذي يضفره الذهول ويظله وينحني عليه ، دون ان يحل فيه حلولا تاما . انه نوع من الفكر المنفصل، او الانفصال الذي روضه الفكر ، اثر عبوره في بوتقته .

وهكذا، فان الانفعال الشعري هو احساس دون شكل، لا يفصح عن ذاته ــ بالرغم من انه يحاول ان يفرضها على الوجود ــ الا اذا تولاه الخيال ، وهو نوع من الحدقة الداخلية التي تحول ظلال الشعور السلبية الى رؤيا، وتنقل التجربة من شيء يعاني الى شيء يبصر ويفهم . والخيال ، بذلك هو معبر يصل المادة بالروح ، والروح بالمادة ، ناقلا التجربة، في الآن ذاته، من طور المعاناة الى طور التجسيد. انه نقطه الحلولية بين النفس والاشياء ، وهو الذي يحتضن العالم الخارجي بجموده وثباته ومعطياته الدائمة ، ويبدعه من جديد تحت وطأة الانفعال . ولا نحسبن ان ثمة تمايزا بين الانفعال والخيال ، او ان ثمة تلاحقا بينهما ، وانما هي لحظة واحدة متفوقة تصل بها النفس الى قلب الاشياء والرؤيا التي تبين من خلالها وحدة الوجود وارواح الحقائق دون تقية او قناع . ولعل ذلك الخيال المنفعل ، هو الذي يوحد الحواس المفارقة في بوتقة نفسية واحدة ، ويطويها في غرفته المظلمة التي تظهر الوجود النفسي الجديد من قلب الوجود الثابت القديم . ولا بدع ، بعدئذ ، ان يكون اصدق الشعراء اولئك الذين يكادون لا تعتريهم اختلاجة ، حتى تتفتق لها صورة في خيالهم ، كأنما يشاهدون شعورهم بقدر ما يشعرون به . ولا بدع ، ايضا ، ان تتلاشى حدود الخيال والشعور في قصائد هؤلاء ، فيتساوى الشعر عند دي نرفال مع الشيمير، كما يتساوى لدى رانبو مع الهلسنة ، وهي جميعا ، رمز لعالم الوهم الذي تتحقق فيه الرؤى بالوهم ، بعد ان تستحيل في الواقع ، او بعد ان تصد عنه وتنقله من حقيقته الى حقيقة خيالية ، تزول فيها حدود الممكن والمستحيل ، ويستعيض فيها الشاعر بعالم نفسي غيبي عن العالم المادي الواقعي . وفي تلك التخوم تحيا عناصر النفس بوحدة لا تمايز فيها ، وهي لا تتمايز الا بعد ان تسقط وتنهار من تلك الاصقاع لتلامس الواقع وتجري عليها احكام الفهم . تلك حالة تحيا بذاتها ، وهي اقصى ما يمكن ان يدركه الانسان لكنها دون وعي ودون ادراك . والوعي والادراك ليسا سوى بقاياها المشوهة واشلائها المنكرة .

لا شك ان الشعراء ليسوا متساوين في القدرة على ادراك هذه الابعاد . فهم بذلك كالصوفيين ، يجرون على رتب ومراحل . فثمة شعراء يبقى خيالهم حسيرا ، راكدا يعجز ، عن احتضان الانفعال والحلول فيه ، فيطغى عليه العقل ويترجمه الى افكار معنوية مجردة بدلا من ان يتحد به الخيال ويجسده بصورة نفسية . لهذا لا نبرح نقول ان الشعر الذي يترجم التجربة بأفكار ، هو نوع من الشعر الذي لم يستطع ان يحقق ذاته في ذروتها بل تقلصت التجربة وسحبت اذيالها . وقد ينهار الشعر الى نوع من التجريد والتقرير او يتضاعف ويتعقد بعضا ببعض ، فتطغى عليه الذهنية. ومعظم الشعر العربي هو شعر معان او صور واعية شبيهة بالمعاني، وذلك لان الانفعال لا يتسرب بكامله الى الخيال بل يتولاه العقل ويحتضنه ، فيتحول الى معان وتتعفى فيه سور الذهول . ولكي نمثل على ذلك ، نستشهد ببيتين يمثلان موقفا نفسيا متشابها وقد صدر الانفعال في البيت الاول الى الخارج ، الى حدود العقل بينما تجسد الثاني في حدود الخيال . قال ابو تمام في مستهل وصفه لموقعة عمورية . .

السيف اصدق انباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

اما المتنبي فيقول خلال وصفه لقلعة الحدث :

بناها ، فأعلى ، والقنا تقرع القنا
وموج المنايا ، حولها متلاطم .

فالشاعران جميعا يعبران عما اختلجت به نفوسهم امام مشهد البطولة بل ملحمتها . وقد كان ذلك نوعا من الانفعال الغامض الذي لا شكل له في حدود الحروف والصور والمعاني . وعندما اعتكف ابو تمام على التعبير عنه جعل يفكر به ، حتى ترجمه الى معان لا تمثل التجربة بل تلخصها تلخيصا حماسيا تقلص به انفعالها وتضمر وغدت تؤثر بفضيلة الوزن والقافية وما انطويا عليه من جلبة وضوضاء حتى غدا المعنى يستظل الى جانبهما وينساق بقلبهما ، كما ينساق الزبد على لجة الموجة الهادرة .

لا شك ان معظم القراء سيفجعون اذا جئنا نبين لهم انه لا فضيلة شعرية لهذا البيت، لان ما عاناه الشاعر تحول خلاله الى فكرة ولان النغم الذي يدوي فيه ، هو نغم خارجي ، اتفاقي ، ادنى الى الضجيج منه الى النغم . فهؤلاء القراء قلما يميزون بين الشعر الصافي والخطابة ،

في البحرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي

بين النشوة الفنية الشبيهة بالنشوة الصوفية والنزوة العصبية ، او ذلك الطرب الآني البدائي الذي يتفجر بتأثير صخب الاشياء واشكالها والوانها . ولعل ابا تمام أدرك ذلك فردد المعنى ذاته خلال بيتين متكررين ، وقد كان هذا الاقبال والادبار على البيت الواحد رمزا لتعتعته وحيرته .

والواقع ان الانفعال بالاشياء لا بد ان يتحرر من نفسه وينطلق ، فاذا احتضنه الخيال وتوحد معه ، فانه يمنحه شكلا نفسيا ، فاذا قصر الخيال عنه ، فانه يجهض بأفكار او يسقم ذاته بذاته او يخادعها او يخدرها او يتعوض عنها بنوع من الصخب في الالفاظ والعنف في النبرة . لا شك ان ابا تمام كان معجبا ببطولة الممدوح ، لكن تلك الحالة لم تستطع ان تبدع الفاظها ، وصورها ، بل اجتازت معبر العقل الذي جردها من ظلالها وهالاتها ، واخرجها من نفسها وغشيها بالالفاظ الفكرية ، وبخاصة عندما عاظلها وجانسها.

اما المتنبي فقد خطر في ذلك البيت بفلذة من الرؤيا ، لان انفعاله توحد مع خياله بدلا من ان يفهم شعوره ، ويخرجه عن طبيعته ، جعل يراه ويتمثله بعين الخيال الذي تلتقي فيه المادة بروحها والروح بمادتها ، كما أشرنا الى ذلك في المقال السابق .

والواقع ان هذا الاشراق الداخلي في الصورة لم يكد يتيسر الا للتجارب الشعرية المعاصرة ، وخاصة في شعر الرمزيين والسرياليين . فالادب الكلاسيكي كان أدب وضوح ولم يكن أدب صور داخلية ترتسم عليها أشباح الذات . وبالرغم من ان الرومنسيين قد اطلقوا النفس من عقالها ، فان انفعالاتهم كانت تمر في بوتقة العقل وحدود المقابلة والتشبيه . اما الرمزيون فانهم لاحقوا سراب التجربة الكلية في عصبهم الشاحب الموحش واحتضنوا العالم في ذواتهم ووشحوه بنوع من الخيال النائي المعتم . ذاك خيال تمحي فيه الاشياء وتسقط مادتها وتفقد ثقلها الترابي ، فلا يبقى منها الا اطيافها التي تتراءى على أفق ما ورائي بعيد . انه نوع من التثلم والاغماء في ذاكرة الاشياء ، او شيء مما يتراءى للنفس عندما تعاني شعور الزوال وتشارف منحدر الوجود الاخر . وقد لا نغالي ايضا ، اذ نقول انها محاولة لمشاهدة الوجود من خلال تخوم الغيب والموت والظلمة .

وهكذا ، فان الخيال يحاول ان يقبض على أشباح الحقائق وارواح المعاني التي لا مقر لها في هذا العالم ، ولعل هذا ما اشار اليه رانبو في رائعة «السفينة السكرى» اذ قال .. « لقد شاهدت احيانا ما توهم الانسان انه شاهده » . لهذا قلما نوفق في الفصل بين الخيال الشعري والروحانية والصوفية في النفس البشرية . فحيث لا روح ينعدم ابداع الخيال الذي هو تجسيد لعالم الروح وتوقها الى التحرر من مادة الوجود واشكاله . فعندما يقول دي فرنال « ان قيثارتي تحمل شمس الكآبة السوداء » نراه يصدر بنوع من الخيال الرائي الذي يدرك الابعاد المبثوثة في حنايا الروح والتي تنبثق كما ينبثق الطيف من قاع النفس المظلم ، المعصوب العينين ، انه نوع من وجود المادة وراء ذاتها . ووجود الروح كطيف قانط مستوحش . وكذلك فيما يقول بودلير :

« ان مواكب الجنائز تجر ذاتها في نفسي دون طبول او موسيقى ، تبكي الأمل المخذول بينما يغرس الاسى القاهر علمه الاسود على راسي المنحني » . فالجنازات بالاضافة الى الاعلام السوداء هي الاشكال التي تفتق بها الخيال بتأثير احوال القنوط التي كانت تطأ وجدان الشاعر . والخيال ، في ذلك كله ، كان متنفسا للنفس لمّ شعثها ووحدها ، فأصبحت كالنغم تبث وهم الاشياء في عالم وهمه أعمق من حقيقته .

الا ان ثمة نوعا من الخيال المقيد بالاشياء ينطلق منها ويبقى في حدودها وفي النهاية نراه وقد اعادها الى ذاتها . وبينما كانت حدقة ذاك الخيال حدقة نفسية مبدعة تذيب الاشياء وتبعثها من جديد ، فان هذه الحدقة هي حدقة بصرية تتصل بالحواس وتقف عند جدارها انه نوع من الخيال الخارجي الذي يعظم حجم الاشياء دون ان يبدل من طبيعتها او ينفث فيها روحا . نرى ذلك في مثل قول ابن الرومي :

ورازقي مخطف الحضور كأنه مخازن البلور
لم يبق منه وهج الحرور الا ضياء في ظروف نور

فالضياء عبر ظروف النور لم يخرج عن طبيعة الالف المتوهج في العنب . انه تكثير له وغلو به، وقد أعيد الى واقعه خارج حدود النفس . والخيال لذلك لم يترجمه او يبعثه فهو خيال وصفي .

ومهما يكن فان الآفة العظمى التي تصيب الخيال هي آفة الجموح . الذي يجعله ينطلق ويمتد ويتطاول بعد أن ينفصل عن الانفعال ويستقل عنه ويغوى الصورة لذاتها او يؤخذ بطرافتها وغرابتها . انه نوع من الخيال الخالي ، المفتون بذاته وبقدرته على العبث بمظاهر الوجود. ووطنيته ومعظم شعر الغلو في الادب العربي هو وليد ذلك الخيال اللاهي الذي يمده الفكر من دون القلب فتغدو صوره خرافات ذهنية وليست رؤى نفسية .

ايليا الحاوي

شعر

من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي
رسائل مؤرقة	سليمان العيسى

دار الاداب

بيروت – ص.ب ٤١٢٣